

شعر الصعاليك أغراضه وخصائصه

AI –Saalik Poetry, its Purposes and Characteristics

إعداد الباحث/ ليو يونق دي

باحث دكتوراه، كلية اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية، جمهورية السودان

Email: 564122409@qq.com

المخلص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن أغراض شعر الصعاليك وخصائصه، وإيضاح صورها الفنية، وإبراز بنياتها الفكرية، ورصد ارتباطها ببيئة إنسانها الزمانية والمكانية، من خلال دراسة نقدية تحليلية. ويعد الصعاليك من طائفة خاصة في العصر الجاهلي، خرج كل واحد منهم على سلطة القبيلة، ورفض عاداتها وواجباتها، واختار العراء سكناً له خاصة بعد طردهم من قبائلهم لمعارضته لحكم القبيلة، وكان معظمهم شعراء مجيدين كتبوا قصائد من عيون الشعر العربي، وأهم هؤلاء الشعراء هم: الشنفرى، السليك بن سلعة، عروة بن الورد، تأبط شرًا، وغيرهم، وهذا البحث مخصص للحديث عن خصائص شعر الصعاليك الجاهلية ورصد أغراض شعرهم. وصف العرب الأقدمون الشعر بأنه ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم؛ وهذا يعني أن شعر الصعاليك حفل بتجسيد مظاهر الحياة الاجتماعية، والرؤية لشعرائه، فشكّل هويته الفريدة من حيث الموضوع والأغراض، أو الصور؛ لأن الشعراء الصعاليك تفرّدوا بأسلوب خاص من الشعر العربي وابتعدوا عن الأغراض التقليدية بصورتها العامة لدى شعراء البادية الأوائل، ولم يلتزموا البناء التقليدي للقصيد في العصر الجاهلي، وهو القالب الذي كان موحداً في كل القصائد الجاهلية، لدى الشعراء الأوائل، فكل شعر الصعاليك كاد أحاط بالواقع وتجربتهم الشخصية فلا يخلق خيالية، وإنما ينقل حياتهم ومعيشتهم وأحداثهم بكل الصدق والتعبير، يمكن أن نرى في شعرهم صور حياة الصعلكة في مدها وجزرها وسعادتها وشقائها وتفاؤلها وتشاؤمها، وحلوها ومرّها. فشعرهم يعد تراثاً فريداً في مضممار الأدب، ويحتل مكانة مهمة في الشعر الجاهلي، ويعتبر عنصراً مهماً من الحضارة العربية؛ لأنه سجل حياة حقيقة لأصحابها، وبواعث نفوسهم، والأسلوب الذي سلكوه في حياتهم.

الكلمات المفتاحية: شعر الصعاليك، العصر الجاهلي، أغراض، خصائص.

Al -Saalik Poetry, its Purposes and Characteristics

Liu Yong De

PhD Researcher, Faculty of Arabic Language, International University of Africa, Republic of Sudan

Abstract:

This research aims to reveal the purposes and characteristics of Al -Saalik poetry, clarify its artistic images, highlight its intellectual structures, and monitor its connection with its temporal and spatial environment through a critical and analytical study. The tramps are from a special sect in the pre-Islamic era, each of them came out against the authority of the tribe, rejected its customs and duties, and chose the open as a residence for him, especially after they were expelled from their tribes for opposing the rule of the tribe, and most of them were glorious poets who wrote poems from the eyes of Arab poetry, and the most important of these poets are: Al-Shanfari, Al-Silik bin Selka, Urwa bin Al-Ward, Ta'abat sharana, and others. This research is devoted to talking about the characteristics of the poetry of pre-Islamic Al -Saalik and to monitor the purposes of their poetry. The ancient Arabs described poetry as the office of their knowledge and the ultimate wisdom. This means that the poetry of the Al -Saalik was a ceremony to embody the aspects of the social and spiritual life of its poets, so it formed its unique identity in terms of the subject, purposes, or images, because the tramp poets were unique in a special style of Arabic poetry and moved away from the traditional purposes in its general image among the early Badia poets, and did not adhere to the traditional construction of the poem in The pre-Islamic era, which is the template that was unified in all pre-Islamic poems, of the early poets, all the poetry of the Al -Saalik almost surrounded reality and their personal experience, so it does not create fiction, but rather conveys their lives, livelihood and events with all honesty and expression. And its misery, its optimism, its pessimism, its sweetness and its bitterness. Their poetry is a unique heritage in the field of literature, occupies an important place in pre-Islamic poetry, and is considered an important element of Arab civilization; because it is a record of the true life of its owners, the motives of their souls, and the way they followed in their lives.

Keywords: Al -Saalik poetry, Pre -Islamic era, Purposes, Properties.

1. مقدمة:

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للعالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي العربي الأمين، صلاةً وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإن شعر الصعاليك يعد مرآة تعكس الحياة العربية البادية، وتقاليدهم ومثلهم بصورة صادقة، وتعبير أصيل، ومعنى دقيق، يمكن القول إنه كنز لا يفنى بالنسبة للأدب العربي، وهذا الشعر القيم ما أهم أغراضه وأبرز خصائصه؟ فهذا البحث سيدور حول سلسلة من هذه المسائل، ويجيب عنها.

1.1. أهداف البحث:

- 1- التعرف على مفهوم الصعلكة ونشأتها.
- 2- استعراض طوائف الصعاليك ودواعيهم في الصعلكة.
- 3- الإيضاح عن الخصائص الفنية في شعر الصعاليك.
- 4- الكشف عن أغراض شعر الصعاليك وبنيتها، ومدى ارتباطها ببيئتها الاجتماعية.

2.1. أهمية البحث:

إن لشعر الصعاليك أهمية كبيرة؛ إذ أنها تتضمن كثيراً من الخصائص الفنية التي تستحق دراستها.

- 1- قد يستفيد الدارسون المختصون من نتائج هذا البحث في مجال الأدب والنقد بالتعرف الكامل على الأغراض والخصائص في شعر الصعاليك.
- 2- يفيد هذا البحث في التكامل مع المناهج المتقدمة لتأهيل الراغبين في مجال الأدب والنقد من خلال التعرف على الخصائص الفنية في شعر الصعاليك.
- 3- يعتبر هذا البحث من البحوث القليلة التي تحاول الكشف عن الأغراض والخصائص في شعر الصعاليك.

3.1. منهج البحث:

لقد اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي لأنه الأنسب لإجراء مثل هذه الدراسات.

مفهوم الصعلكة:

تشير لفظة الصعلوك في اللغة العربية إلى الإنسان الفقير الذي لا يملك شيئاً، وفي معجم لسان العرب الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له، وتصلك الرجل أي افتقر، وفي هذا المعنى قال حاتم طيبي: (1)

غَنِيئًا زَمَانًا بِالتَّصْلُوكِ وَالْغِنَى فَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ
فَمَا زَادْنَا بَغِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانًا وَلَا أَرْزَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ

والتصلك هنا الفقر، لكن لفظة الصعلوك أخذت معانٍ أوسع من دلالاتها اللغوية؛ لاحظنا كلمة (الصعلكة) أحياناً تستعمل في معنى الفقر وأحياناً أخرى تستعمل في معنى اللصوص وقطاع الطريق، فهذا يرجع إلى اعتبار لفظ الصعلكة من الكلمات التي نقلت من الأصل اللغوي إلى مدلول عرفي أو اصطلاحي بسبب غلبة الاستعمال، مثل لفظ (الحج) نقل من معناه الأصلي وهو القصد إلى حج بيت الله بسبب غلبة الاستعمال، فمثل هذا النوع من الألفاظ ينتقل به العرف أو الاصطلاح إلى مدلول جديد غير مدلوله اللغوي مع وجود رابطة بين المدلولين.

ومن المعروف أن المدلول الجديد لا يمنع استعمال في معناه الأصلي مثل الصعلكة في المعنى الأصلي هو الفقر وبعد نقلها إلى مدلول جديد هو الفتك وقطع الطريق، وهذا المدلول لا يمنع استعمالها في معناها الأصولي: وتدل علينا القصيدة التالية: (2)

لَحَى اللَّهُ صَعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مصافي المشاش ألفاً كل مجزر
يَعْدُ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا يَخُتُّ الْحَصَى عَنِ جَنْبِهِ الْمُتَعَفَّرِ
وَلَكِنَّ صَعْلُوكًا صَفِيحَةً وَجْهَهُ كَضَوْءِ شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوَّرِ
مُطِلاً عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهَرِ
إِذَا بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ إِقْتِرَابَهُ تَشْؤُفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظَّرِ

قد استعمل الشاعر لفظ (صعلوك) في المعنى الأصلي: الفقر والتجدر من المال وفي المقطوعة الثانية استعمل المدلول العرفي للصعلكة: وهو الشخص دائماً يقيم بالسطو والعدوان.

بعد رحلة قصيرة من الوقوف على دلالات كلمة (الصعلكة) ومعانيها لاحظنا أن (الصعلكة) هي الفقر مع أن أخبار هؤلاء الصعلوك تشير إلى أنهم من قطاع الطرق واللصوص،

1 ديوان حاتم الطائي، أبو صالح يحيى بن مدرك، ص66.

2 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبكر محمد، ص68-69.

فكيف أصحاب المعاجم اكتفوا بالفقر وصرقوا النظر عن هذا المدلول العرفي، واقتصروا على الأصل اللغوي وهو الفقر دون إشارة إلى المعنى العرفي هو اللصوص؟ ومن الأرجح أن الفقر من أبرز الدوافع التي تسوقهم إلى الصعلكة، وهذا الفقر لازمهم حتى بعد أن سلكوا مسلك الصعلكة وأصبح رمزهم وطابعاً ظاهراً في حياتهم وأشعارهم.

نشأة الصعلكة:

إن تحديد بدء الصعلكة من الناحية الزمنية بعيد المنال، فذلك السبب يرجع إلى أن التاريخ العربي قبل الإسلام غير مدوّن على وجه الدقة، وبالجانب إلى ذلك أن المؤرخين لم يؤرخوا لأكثر من قرن ونصف قبل الإسلام" أما الشعر الجاهلي فحديث الميلاد أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل ابن ربيعة، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن - جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئة عام" (3) والمصادر التي يلجؤ إليها المؤرخون في تحديد بدء التاريخ لأمة من الأمم تتمثل في نوعين: أحدهما الروايات والكتابات عن هذه الأمة، والأخرى الآثار التي تركتها هذه الأمة في توال وتتابع، وأهم المصادر التي يعتمد المؤرخون عليها في تحديد تاريخ الأدب العربي أو التاريخ العربي قبل الإسلام هو الشعر أو الروايات أو الأحداث التي سجّلت الأجداد للعرب وكانوا قدسوها وافتخروا بها، مثل حرب البسوس.

الصعلكة ليست حدثاً عارضاً أبداً بل هي لازمت المجتمع العربي" وإنما كانت (صعلكة) ظاهرة نبعت من ظروفه ولازمته كجزء منه، ولذلك لا نتوقع أن يكون لها تاريخ مستقل، وإنما يرتبط تاريخها بتاريخ المجتمع نفسه ونتيجة ذلك، نجد أن الصعلكة لازمت كل العصور الجاهلية التي ورد لنا منها تاريخ وكل أماكن الجزيرة العربية تقريباً" (4) وأيضاً نتراء لنا أخبار امرئ القيس في إدراك الثأر لأبيه كان استعان بالصعاليك، وحشد جماعة من الصعاليك في معركة مع بني أسد، فهذا الخبر يدل على أن الصعلكة لازمت التاريخ الجاهلي منذ كان تاريخاً.

طوائف الصعاليك:

الصعاليك على حسب أسباب تصعلكهم قسمهم الأدباء على ثلاث طوائف:

أ. الفقراء:

هم الذين لا يملكون أموالاً، ولا بهائم، ولا مزارع، فأذللهم المجتمع واستحقرهم، الأمر الذي اضطرهم إلى الخروج عن المجتمع وانتماء إلى الصعاليك، فيغيرون على قومهم لنهب أموالهم وليسلبوا ممتلكاتهم، ثم يشاركون مع شركائهم في توزيع الغنائم، ومن هؤلاء الصعاليك عروة بن الورد، ويعد رئيس الصعاليك، حين يشكو لزوجته بما لقيه في مجتمعه من الذل والحقر، والكرهية قال: (5)

دَعَيْني لِغِنَى أَسْعَى قَاتِي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِير

3 كتاب الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ج1، ص74.

4 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص40.

5 ديوان عروة بن الورد، ص58.

وَأَبَعْدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ
وَيُقْصِيهِ النَّدِيَّ وَتَزْدَرِيهِ
وَيُلْفِي ذُو الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ
وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ
حَلِيأْتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ
يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبُهُ يَطِيرُ
وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبٌّ غَفُورٌ

ب. الخلعاء:

هم الذين تيرأت قبائلهم منهم بسبب كثرة جرائمهم التي أنقضت ظهور القبائل وأثقلت عليهم من الفديات والغرامات، فاضطرت القبائل إلى فصلهم من القبيلة والتبرأ منهم، وأعلنت أنهم لم يعودوا ضمن وصاياتها ولا تحت حمايتها، فهم لا يمثلونها وهي لا تمثلهم، ولا يوجد صلة بينها وبينهم، وكان يتم هذا الإعلان عادة في الأسواق التي يؤمها القبائل العربية فينادي بأن فلاناً قد تم خلعته من قبيلته، ومن يومها يصبح هذا الشخص بلا مأوي ولا اعتماد فتصبح الصلعة هي وسيلته الوحيدة لضمان حياته وتأمين رزقه، فمن أولئك الخلعاء حاجز الأزدي، وأبو الطمحن القيني، وقيس بن الحدادية.

ت. الأعرية السود:

عرفهم بأعرية العرب لسود ألوانهم، وآباؤهم لا يعترفون بأنسابهم مع أنهم أنجبوهم على ظهورهم، وأغلبيتهم ينسبون إلى أمهاتهم، ولا يملكون حقوقهم من القبائل، على الرغم من أنهم يمتازون بالصفات المميزة عن غيرهم مثل الشجاعة، وسرعة العدو، والفروسية، فليس كلهم من الصعاليك ماعدا الشنفرى، وتأبط شرا، والسليك بن السلعة، فضاقتهم التعامل السيئ من قومهم، ثم لجأوا إلى حياة الصعاليك كما قال الشنفرى في إنذار قومه بارتحاله عنهم: (6)

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيَّكُمْ
فَإِنِّي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُمْ لِأَمِيلُ
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلِي مُتَعَزِّلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى

أغراض شعر الصعاليك:

إن شعر الصعاليك يشبه المذكرات التي يدون الشاعر فيها ما يجيش في صدره من المشاعر والانفعال حول المعانات والأحاديث والمغامرات عن طريق الأسلوب القصصي، بما فيها تشمل دوافع الصلعة كالفقر والهوان، ومخاطر تواجههم في مزاوله الصلعة من تربص الأعداء ومتاعب التشرذم، فكل هذه الآثار تثير مشاعرهم قوياً وتسوقهم إلى تدوين إحساسهم بالشعر، يمكن أن نلخص موضوعات أشعارهم في الآتي:

1- الفقر وأثاره:

لا شك في أن الفقر من أبرز الأسباب التي دفعت الصعاليك إلى الصلعة، كما تردد كثيراً في أخبار عروة بن الورد من مثل كان عروة إذا أصابت قومه سنة شديدة.. وكان عروة إذا أجدب الناس.. خرج للغزو وبلغ من فقره أنه اضطر إلى رهن امرأته

6ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص55.

على الشراب في بني النضير، لأنه لم يكن يملك غيرها، على الرغم من أنه كان عائداً من إحدى غزواته. ومن مثل روايتهم عن السليك أنه أصابته خصاصة شديدة فخرج على رجليه وحين مر الوالي سعيد بن عثمان بمالك بن الربيب وهو يقطع الطريق قال له: ويحك يا مالك ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداة وقطع الطريق؟ قال: أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الإخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكفّ عما تفعل وتتبعني؟ قال: نعم، أكف كأحسن ما كفّ أحد. وهكذا في أخبار كثيرة تفيض بها الروايات عن فقرهم،⁽⁷⁾ ويكاد الفقر غلب على موضوع شعرهم، فكل شاعر من الصعاليك لم يخل شكواً للفقر في شعرهم، وقد صوروا في شعرهم معاناتهم بالفقر وصراعهم لمقاومته بصور بيانية متنوعة، تأبط شراً حين يشكو من فقره قال:

قَلِيلٌ إِذْخَارِ الزَّادِ إِلَّا تَعْلَةً فَقَدْ نَشَرَ الشَّرْسُوفُ وَالتَّصَقَّ الْمِعَا

وصف الشاعر أنه لا يملك زادا لسد المجاعة إلا تعلقةً، وبرزت أضلاعه من النحول والتصق أمعاؤه من الجوع.

عروة بن الورد يقول عن فقره:⁽⁹⁾

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا يُعَرَّرُ وَيَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ

من أجل تعويل الأسرة يدفعه الفقر إلى المغامرة بنفسه في كسب المعيشة، ويقول لامراته أنه اعتزم قيام النهب والغزو لفرار من الفقر الأسود، ويفضّل الموت على أن يعيش في مذلة، فإن قُتل فموته أرحم لها من عيش الذل، وإن أصاب غنيمة أغنى امرأته وأولادها عن انزواء في البيت مترقبين عطاء المحسنين يقول:⁽¹⁰⁾

دَرِينِي أَطْوَفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي أَخْلَيْكَ أَوْ أَغْنِيكَ عَنْ سَوْءِ مَحْضِرِي
فَإِنْ فَازَ سَاهِمٌ لِلْمَنْيَةِ لَمْ أَكُنْ جَزوعاً وَهَلْ عَن ذَاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ
وَإِنْ فَازَ سَاهِمِي كَفَّكُمْ عَن مَقَاعِدِ لَكُمْ خَلْفَ أَدْبَارِ الْبُيُوتِ وَمُنْظَرِ

الأعلم الهذلي حين يصف ما يعانيه عائلته من فقر فُرض عليه تطلع إلى ما في أيدي الأقارب يقول:⁽¹¹⁾
ذَكَرْتُ أَهْلِي بِالْعَرَاءِ وَحَاجَةَ الشُّعْثِ التَّوَالِبِ
الْمُصْرِمِينَ مِنَ التَّلَادِ اللَّامِحِينَ إِلَى الْأَقَارِبِ

7 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 186.

8 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاکر، ص 115.

9- ديوان عروة بن الورد، ص 51.

10 المرجع السابق- ص 67.

11 ديوان الهذليين، ص 81.

وصخر الغي في وصف فقره وضيق يده قال: (12)

إِنِّي بِدَهْمَاءَ عَزَّ مَا أُجِدُّ عَاوَدَنِي مِنْ حِبَابِهَا زُودُ

وعمر بن بركة يقول: أنه لا يملك شيئاً إلا سيفاً صارماً لونه كلون الملح: (13)

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمٌ

آثار الفقر:

كما ذكرنا في تعريف الصعلكة سابقاً أن الصعلية كلهم يتعانون بالفقر وضاق ذراعهم بذلك، فالفقر هو العنصر الرئيس الذي يسوقهم إلى التمرد على القبائل، وإقامة بعملية النهب والسلب لكسب معيشتهم معتمدين على قوتهم، وهم يصارعون الفقر بكل الوسائل حتى بذل حياتهم، وأبرز من عناء الفقر يتمثل في جوع البطن ونحول الجسم والهزال، فليس من الصعب أن نجد صور مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسي الذي يتعرضون له دوماً حتى تعودوا عليه ولديهم طرق معينة لمقاومته بها.

الجوع:

كان السليك بن السلعة مسكه الجوع الشديد في الصيف، وهذا الجوع المتكرر يجعله شعوراً بدوران، حين يقف يظلم

البصر: (14)

وَمَا نِلْتُهَا حَتَّى تَصَعَلَكْتُ حِقْبَةً وَكَدْتُ لِأَسْبَابِ الْمَنِيَّةِ أَعْرَفُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ الْجُوعَ بِالصَّيْفِ ضَرَّنِي إِذَا قُمْتُ تَغْشَانِي ظِلَالٌ فَأَسْدِفُ

والجوع في حياتهم ليس حالة عارضة إنما هو يلازمهم دائماً، فهم يعالجونه بقوة الإرادة والصبر الشديد، من ذلك ما حدثنا به الشنفرى في معالجة الجوع: (15)

أَدِيمُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتَهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلَا يَرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ إِمْرُؤٌ مُنْطَوُّ

نحول الجسم:

يصف الشنفرى جسمه بكعب القدم حين ينام لا يبلغ الأرض بأن عظمه بارز يحول بينه وبين الأرض، وهو يتوسد ذراعه الجاف بدون لحم كأنها قطعة حديد فقال: (16)

12 المرجع السابق- ص57.

13 عمر بن بركة الهمداني، شريف راغب علاونة، ص86.

14 السليك بن السلعة أخباره وشعره، حميد آدم ثويني، كامل سعيد عواد، ص60.

15 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص58.

16 المرجع السابق- ص61.

وَأَلْفَ وَجْهِ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا بِأَهْدَأُ تُنْبِيهِ سَنَاسِينَ فُحَّلُ
وَأَعْدِلُ مَنحَوْضاً كَأَنَّ فُصُوصَهُ كِعَابٌ تَحَاها لَاعِبٌ فَهِيَ مُثَلُّ

وعروة بن الورد يتحدث عن نحول جسمه: (17)

وَمَنْ يُؤْثِرَ الْحَقَّ النَّوْبَ تَكُنْ بِهِ خَصَّاصَةٌ جِسْمٍ وَهُوَ طَيَّانٌ مَا جِدُّ
وَإِنِّي أَمْرُؤٌ عَاقِي إِنْ أَيْ شِرْكَةً وَأَنْتَ أَمْرُؤٌ عَاقِي إِنْ أَيْكَ وَاجِدُّ
أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءِ بَارِدُ

وكان يمكن أن يعيش في رغبة ويغذي جسمه بأغذية كافية ولكنه أثر رغبة شخصية أن يقسم الغنيمة إلى الذين يجود عليهم ويشارك معهم في رزقه.

وتأبط شرا يصف جسمه بهيكل العظم الفاضي من اللحم، لذلك كان جسمه في نحول وضالة، حين حاصره الأعداء من بني لحيان الهذليين، من أجل النجاة فصب العسل على الصخور وانزلق عليها نجاها منهم: (18)

وَأُخْرَى أَصَادِي النَّفْسِ عَنْهَا وَإِنَّهَا لَخُطَّةٌ حَزَمَ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ
فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فَرَلَّ عَنِ الصَّفَا بِهِ جُوجُؤٌ عَابِلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ

ومالك بن الرِّيب يتحدث عن نحول جسمه: (19)

وَقَدْ تَقُولُ وَمَا تَخْفِي لَجَارَتِهَا إِنْ أَرَى مَالِكَ بِنَ الرِّيبِ قَدْ تَحَلَّا
مَنْ يَشْهَدُ الْحَرْبَ يَصِلَاها وَيَسْعِرُهَا تَرَاهُ مِمَّا كَسَتْهُ شَاحِباً وَجِلَّا

2- أحاديث المغامرة:

إن المغامرة هي ظاهرة طبيعية لفئة اتخذت الغزو والنهب نظام حياتها وتسلحت بالقوة والرجولة، بما أن حياة الصعاليك تعتمد على شن الغزو وإقامة النهب والسلب، فمن الطبيعي أن تكون أكثر الموضوعات التي يتناولونها ويتحدثون فيها عن مغامراتهم وافتخارهم ببطولاتهم، ومقدرتهم على النجاة من الأخطار "وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خططها، إلى أن تنتهي الغارة، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خططهم، وحققوا أهدافهم، وهم يصفون في أثناء ذلك، الطريق الذي سلكوه ويتحدثون عن رفاق الغارة، ودور كل واحد فيها، وكيف نفذوا خططهم، وكيف كانت آثارها في أعدائهم، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا". (20)

17 ديوان عروة بن الورد، ص 61.

18 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاكرا، ص 89.

19 كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ص 206.

20 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 182.

يصف الشنفرى في قصيدته الثانية غارة شنها إلى بني سلامان مع رفاقه الصعاليك، ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين يقتحمون الصعاب غير خائفين وهائبين: (21)

وَبَاضِعَةٍ حُمِرِ الْقِسِيِّ بَعَثْتُهَا
وَمَنْ يَغْزُرُ يَغْنَمُ مَرَّةً وَيُشَمَّتِ
خَرَجْنَا مِنَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَ مِشْعَلِ
وَبَيْنَ الْجَبَا هَيْهَاتَ أَنْشَأْتُ سُرْبِي
أَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تَضُرَّنِي
لَأُنْكِي قَوْمًا أَوْ أَصَادِفَ حُمَّتِي
أَمْشِي عَلَى أَيْنِ الْعَزَاةِ وَبُعْدَهَا
يُقَرَّبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدُوتِي

ثم يصور أسلحتهم المعدة للقتال ويبين أن في جعبته سهام متهينة للقتال بهمة حاملها، والسيوف الفاطعات الماضيات كأنها قطع الماء في الغدير لمعاناً وبريقاً، وهي دائماً متحركة كأنها أذنان أولاد البقر حين رؤية أمهاتها وتنهل وتعل السيوف من دماء الأعداء: (22)

لَهَا وَفَضَّةٌ مِنْهَا ثَلَاثُونَ سَيْحَفًا
وَإِذَا أَنْسَتِ أُولَى الْعَدِيِّ اقْتَشَعَرَّتِ
وَتَأْتِي الْعَدِيَّ بَارِزًا نِصْفُ سَاقِهَا
تَجُولُ كَغَيْرِ الْعَائَةِ الْمُتَأَلِّقَتِ
إِذَا فَزِعُوا طَارَتْ بِأَبْيَضٍ صَارِمِ
وَرَامَتْ بِمَا فِي جَفْرِهَا ثَمَّ سَأَلَتْ
حُسَامٌ كَلُونَ الْمِلْحِ صَافٍ حَدِيدُهُ
جُرَازٍ كَأَقْطَاعِ الْعَدِيرِ الْمُنْعَتِ
تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرًا
وَقَدْ نَهَلَتْ مِنَ الدِّمَاءِ وَعَلَّتِ

3- وصف الأسلحة:

إن حمل السلاح " شيمة العربي، يرى سلاحه جزءاً منه، لا يفارقه في سلم أو غيره، فهو يلزم له في كل أوقاته" (23) وحياة الصعاليك أشد قاسية وأقصى خطيرة، فتحتاج إلى أسلحة لحامية أنفسهم فالأسلحة هي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم. (24)

الأسلحة التي يتسلح بها الصعاليك لخوض حياتهم القاسية تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: أسلحة مادية:

تعد الأسلحة جل مال الصعاليك، كما أكد الشنفرى في لاميته أنه ستغنى بسيفه الأبيض وقوسه عن عون الناس جميعاً فيقول: (25)

21 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 37.

22 المرجع السابق، ص 38.

23 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 215.

24 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 195.

25 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 56.

وَإِنِّي كَفَانِي فَقَدْ مَن لَيْسَ جَازِيَا بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ
ثَلَاثَةٌ أَصْحَابِ فُؤَادٍ مُّشَيِّعٌ وَأَبْيَضُ إِصْلَابِيَّتٍ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

"والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي، سواء منها أسلحة الهجوم: السيف، والرمح، والقوس، والسهام، أو أسلحة الدفاع: الدرع، والترس، والمغفر، ويلح الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحاً شديداً"،⁽²⁶⁾ يصفون أسلحتهم من كل أجزائها: اللون، والشكل، والصوت، وطريقة الصنعة، وطريقة الاستخدام، وقيمتها في حفاظ حياتهم، ويتفننون في تصوير هذه الأسلحة باعتزاز، وتحدثوا عن أسلحة كثيرة في أشعارهم لنلق نظرة إلى أهمها فيما يلي:

1. السيف:

السيف هو سلاح يحرص كل عربي على حمله، وهو يعد زينة للعرب "أما السيف فملازم للفرد دائماً، سواء في الحرب والسلام، وقد تحدث شعر الصعاليك عن السيف بإضافة وتفنن".⁽²⁷⁾

فالسيف عند عمرو بن بركة جل ماله يلازمه دوماً:⁽²⁸⁾

حُسَامٌ كَلُونِ الْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمٌ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَن جُلُّ مَالِهِ
لَهُ طَمَعاً طَوْعُ الْيَمِينِ مُلَازِمٌ غَمُوضٌ إِذَا عَضَّ الْكَرْيَهَةَ لَمْ يَدَعِ

وأيضاً عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد تجنب القهر والمظالم في مجتمع يدين بالقوة:⁽²⁹⁾

مَتَى تَجَمَعَ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجَنَّبَكَ الْمَظَالِمُ

وصخر الغي يرسم لنا سيفه بصورة دقيقة، فسيفه أصيل ماض من حديد، رقيق الشفرتين:⁽³⁰⁾

وَصَارِمٌ أَخْلَصَتْ خَشْيَبَتُهُ أَبْيَضُ مَهْوٌ فِي مَتْنِهِ رُبْدُ
فَلَيْتَ عَنْهُ سُيُوفَ أَرِيحَ حَتَّى بَاءَ بِكَفِّي وَلَمْ أَكْدِ أَجْدُ
فَهُوَ حُسَامٌ تُتْرَضَّرَبَتُهُ سَاقُ الْمُدَّكِي فَعَظْمُهَا قِصْدُ
وَسَمْحَةٌ مِنْ قِيسِي زَارَةٌ صَفْرَاءُ هَاتُوفٌ عِدَاةُهَا غَرْدُ

26 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 215.

27 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 216.

28 عمر بن بركة الهمداني، شريف علاونة، ص 109.

29 المرجع السابق- ص 35.

30 ديوان الهذليين، القسم الثاني، ص 60.

وتأبط شرّاً يصف سيفه بأنه حاد ثقيل إذا أكل لا يحتاج إلى صيقل: (31)

فَطَارَ بِقَحْفِ ابْنَةِ الْجِنِّ ذُو
سَفَاسِقٍ قَدْ أُخْلِقَ الْمِحْمَلَا
إِذَا كَلَّ أَمْهِيئُهُ بِالصَّفَا
فَحَدَّ وَلَمْ أَرِهِ صَيِّقَلَا

ويشبه الشنفرى بياض السيف بالملح، كأنها قطع الماء في الغدير لمعناً وبريقاً، وهي دائماً متحركة كأنها أذناب أولاد البقر

حين رؤية أمهاتها وتنهل وتعل السيف من دماء الأعداء: (32)

إِذَا فَزَعُوا طَارَتْ بِأَبْيَضٍ صَارِمِ
وَرَامَتْ بِمَا فِي جَفْرِهَا ثُمَّ سَلَّتْ
حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمِلْحِ صَافٍ حَدِيدُهُ
جُرَازٍ كَأَقْطَاعِ الْعَدِيرِ الْمُتَنَعَّتِ
تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرَا
وَقَدْ نَهَلَتْ مِنَ الدِّمَاءِ وَعَلَّتْ

ويتحدث عروة بن الورد عن بياض سيفه مشهر: (33)

نُطَاعِنُ عَنْهَا أَوْلَ الْقَوْمِ بِالْقَنَا
وَبِيضِ خِفَافٍ وَقُعُهنَّ مُشَهَّرِ

ويتحدث عروة أيضاً عن بياض سيفه الذي لا يملك غيره وغير درعه: (34)

وَمَالِي مَالٍ غَيْرُ دِرْعٍ وَمِغْفَرِ
وَأَبْيَضُ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ صَقِيلِ

لاحظنا أن الشعراء الصعاليك كادوا لم يخرجوا من تشبيه بياض سيوفهم بالملح، "لعل الملح أشد ما يعرفونه بياضاً، فلا نعلم شيئاً في حياتهم أكثر بياضاً من الملح، وحتى اللبن المعروف بالبياض لا يبلغ الملح في صفاء بياضه، وخاصة لبن الإبل الشائع بينهم، فبياضه غير خالص لما يشوبه من الدهن، معنى ذلك أنهم يريدون أن يشبهوا بياض سيوفهم بأشد ما يعرفونه بياضاً وهو الملح". (35)

2. السهم:

يعد السهم من الأسلحة الضرورية للصعاليك؛ وذلك لأن حياة الصعاليك مبنية على التردد والهجوم والدفاع الفردي، يحتاج إلى سلاح بعيد المدى في الإصابة، بحيث لا يضطره إلى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضحاياه، والسهم خير ما يحقق له ذلك" (36) لذا يتحدث الشعراء الصعاليك كثيراً عن السهم، ويتفننون في تصويره،

31 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاعر، ص 165.

32 المفضليات، المفضل الضبي، ص 108.

33 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبك محمد، ص 69.

34 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 216.

35 المرجع السابق، ص 218.

36 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 222.

يتحدث الشنفرى في بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها، وكيف يركب في قداحها الريش، وكيف يتابع فيها البري حتى تصير صالحة للاستعمال، ثم يتحدث عن قيمة هذه السهام التي أعدها هدية لأعدائه: (37)

وَرَدْتُ بِمَآثُورٍ يَمَانٍ وَضَالَةٍ تَخَيَّرْتُهَا مِمَّا أَرِيشُ وَأَرُصُفُ
أَرْكَبُهَا فِي كُلِّ أَحْمَرَ غَاثِرٍ وَأَنْسِجُ لِلْوِلْدَانِ مَا هُوَ مُقْرِفُ
وَتَابَعْتُ فِيهِ الْبَرِيَّ حَتَّى تَرَكَتُهُ يَرِنُّ إِذَا أَنْزَفْتُهُ وَبُزَفْتُهُ
بِكَفَيْهِ مِنْهَا لِلْبَغِيضِ عُرَاضَةٌ إِذَا بَعْتُ خُلَامًا لَهُ مُتَعَرَفُ

وصخر الغي يصف سهمه بأنه حصن منيع يحول بينه وبين أعدائه: (38)

إِنِّي سَأَيُنْهِى عَنِّي وَعَيْدُهُمْ بِيضُ رِهَابٍ وَمُجْنَأُ أَجْدُ

يتحدث الشنفرى عن أهمية السهام للصعاليك، فهو يحمل منها ما يستطيع حمله، لأنه يشكل حاجزاً بينه وبين أعدائه، ورفيقه تابط شراً دائماً يحمل معه جعبة فيها ثلاثون سهماً مهيأة للإطلاق عند إحساسه بالخطر: (39)

وَأَمَّ عِيَالٍ قَدْ شَهَدْتُ تَقْوَتَهُمْ إِذَا أَطَعَمْتَهُمْ أَوْتَحَتِ وَأَقَلَّتِ
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعَيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعُ أَيِّ آلٍ تَأَلَّتِ
لَهَا وَفَضَّةٌ فِيهَا ثَلَاثُونَ سَيَحْفَأُ إِذَا أَنْسَتِ أُولَى الْعَدِيِّ اقْتَشَعَرَتْ
وَتَأْتِي الْعَدِيَّ بَارِزاً نِصْفُ سَاقِهَا تَجُولُ كَغَيْرِ الْعَانَةِ الْمُتَأَلَّفَتْ

وعمرؤ ذو الكلب يصف سهمه بأنه خير رد على وعيد المتوعددين، وكنانته تحوي سهاماً كالشوك فيجعل وعيد الأعداء هراء: (40)

تَمَنَّانِي وَأَبِيضَ مَشْرِفِيَا أَشَاحَ الصَّدرِ أَخْلِصُ بِالصِّقَالِ
وَأَسْمَرَ مُجْنَأً مِنْ جِلْدِ ثُورٍ أَصَمَّ مُقْلَأَ ظَبَّةِ النَّبَالِ
وَإِفْاقِي بِسَهْمِي نَمَّ أَرْمِي وَإِلَّا فَالْأَبَاءَةَ فَاشْتِمَالِي
وَفِي قَعْرِ الْكِنَانَةِ مُرْهَفَاتُ كَأَنَّ ظَبَاتِهَا شَوْكُ السِّبَالِ

37 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص198.

38 ديوان الهذليين، القسم الثاني، ص60.

39 المفضليات، المفضل الضبي، ص110.

40 ديوان الهذليين، القسم الثالث، ص116.

يمكن القول أن السهم أهم سلاح ما يلزم للصعاليك لاعتماد حياتهم على التردد والخفية، فيحتاجون إلى سلاح بعيد المدى بحيث لا يضطره إلى الاصطدام المباشر مع الأعداء.

3. القوس:

القوس أداة الرمي فهي مرتبطة بالسهم، واهتمامهم بالسهم ينعكس على أهمية القوس بالنسبة لهم أيضاً، لذا نجد الشعراء الصعاليك إيلاء القوس تصويراً بارعاً، فيتفنون في لونها وصوتها.

ولون القوس عند الشنفرى، أحياناً حمراء يقول في تائيته: (41)

وَبَاضِعَةٍ حُمِرِ الْقِسِيِّ بَعَثَتْهَا وَمَنْ يَغْزُرُ يَغْنَمُ مَرَّةً وَيُسَمَّتْ

وأحياناً آخر صفراء يقول في لاميته: (42)

ثَلَاثَةٌ أَصْحَابِ فُؤَادٍ مُشَيِّعٌ وَأَبْيَضٌ إِصْلِيْتُ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

فهذا التصوير يدل على "دقة ملاحظة الشنفرى، وصدق تعبيره عن تجاربه، فالقوس تكون صفراء في أول أمرها، فإذا ما كثر استعمالها وتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية صارت حمراء". (43)

وتأبط شراً في رثائه له يصف قوسه بأنها صفراء: (44)

يُفَرِّجُ عَنْهُ غُمَّةَ الرُّوعِ عَزْمُهُ وَصَفْرَاءُ مِرْنَانٌ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ

وبالإضافة إلى لون القوس، فيهتمون بصوتها أيضاً، وعند صخر الغي كأنه أصوات قوم يبحثون عن شئ فقدوه: (45)

وَسَمَحَةٌ مِنْ قِسِيِّ زَارَةَ صَفْرَاءُ هَتَوْفٌ عِدَادُهَا غَرْدُ

كَأَنَّ إِرْنَانَهَا إِذَا رُدِمَتْ هَزْمٌ بُغَاةٌ فِي إِثْرِ مَا فَتَقَدُوا

أما الشنفرى فيدقق في وصفه "فهو يلاحظ أن للقوس عند الرمي صوتين: صوتاً عند بدء الرمي، وصوتاً بعد الانتهاء منه، فانطلاق السهم يبدأ بصوت عال صارخ، ثم ما إن ينطلق السهم حتى يهدأ رنين القوس، ويتحول إلى صوت ضعيف خافت نتيجة لاهتزازات وترها" (46)

وقاربتُ من كَفَى ثم فرجتها بنزع إذا ما استكرة النزغ مخلج

41 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 56.

42 المفضليات، ص 111.

43 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 201.

44 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاكور، ص 81.

45 ديوان الهذليين، القسم الثاني، ص 60.

46 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 201.

فَصَاخَتْ بِكَفِّيٍّ صِيحَةً ثُمَّ رَاغَعَتْ أَنْيْنَ الْأَمِيمِ ذِي الْجِرَاحِ الْمَشَجَّجِ

4. الرَّمْح:

وصف الصعاليك للرمح ليس مستفيضاً، ويرجع السبب إلى قلة اعتمادهم عليها في مغامراتهم، لأن الرمح من الأسلحة التي يغلب استعمالها في الحرب، عروة بن الورد⁽⁴⁷⁾ يرسم في رائيته المشهورة صورة رائعة له ولأصحابه، وهم على خيلهم يطاردون إبلاً نهبوها، وقد أشرعوا رماحهم وسيوفهم ليدفعوا عنها أصحابها الذين خرجوا خلفهم ليستردوها⁽⁴⁷⁾

سَيُفَزِعُ بَعْدَ الْيَأْسِ مَنْ لَا يَخَافُنَا كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ الْمَنْفَرِ
نُطَاعِنُ عَنْهَا أَوْلَ الْقَوْمِ بِالْقَنَا وَبِيضِ خِفَافٍ وَقَعُهنَّ مُشَهَّرِ

ويصف عروة بن الورد في قصيدة أخرى رمحه بأنه رمح أسمر دائم الغلبة والنصر:⁽⁴⁸⁾
وَأَسْمَرُ خَطِيئِ الْقَنَاةِ مُتَّقَفٌ وَأَجْرَدُ عُرْيَانُ السَّرَاةِ طَوِيلٌ

ويتحدث عمرو بن بريقة عن قنوات رماحهم:⁽⁴⁹⁾
فَلَا صُلْحَ حَتَّى تُقَدِّعَ الْخَيْلَ بِالْقَنَا وَتُضْرَبَ بِالْبِيضِ الْخِفَافِ الْجَمَاجِمُ

ويقول:⁽⁵⁰⁾
مَتَى تَطْلُبِ الْمَالَ الْمُتَنَعَّ بِالْقَنَا تَعَشَ مَاجِدًا أَوْ تَخْتَرِ مَكَّ الْمَخَارِمُ

وصخر الغي في وصف الرمح عند صيد حمار الوحش يقول:⁽⁵¹⁾
فَشَامَتِ فِي صُدُورِهِمَا رِمَاحًا مِنْ الْخَطِيئِ أَشْرَبَتِ السِّمَامَا

5. الدرع والترس:

من أسلحة الدفاع، ووسائل الوقاية في الحرب، وخافت أنغام الحديد عنها؛ لأن "في حملها مثقلة لهم تفسد عليهم حياتهم في الصلعة التي تحتاج دائماً إلى خفة الحركة وسرعة العدو، ولم يتحدث عن الدروع إلا الذين عاشوا فترات مع أقوامهم.. كقيس ابن الحدادية، فيقول عن انتقاله من حياة الدعة والهدوء إلى صراع:⁽⁵²⁾

وَأَصْبَحْتُ بَعْدَ الْأَنْسِ لَا يَسُّ جُبَّةً أَسَاقِي الْكُمَاةِ الدَّارِعِينَ الْعَوَالِيَا

47 المرجع السابق، ص 202.

48 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 202.

49 عمر بن بريقة الهمداني، شريف راغب علاونة، ص 115.

50 المرجع السابق، ص 114.

51 ديوان الهذليين، ص 66.

52 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 230.

أما الترس فهو مصنوع من جلد الثور، وهو من وسائل الدفاع كالدرع، ووزنه أخف من من الدرع، " فهو أنسب للصعاليك حتى لا يتقل حركتهم ولا يعوقهم عن العدو؛ فإن لم يكن بد من اتخاذ أحدهم شيئاً يتقي به وقع النبال، فالترس أنسب لهم من غيره". (53)

وصخر الغي يصف ترسه بأنه مقبب موثق: (54)

إِنِّي سَايِنُهَى عَنِّي وَعَيْدُهُمْ بِيضٌ رِهَابٌ وَمُجْنَأُ أُجْدُ

ووصف عمرو بن ذي الكلب في ترسه أدق من صخر الغي، ويفرد لها بيتاً، فذكر فيه أهمية الترس في صد النبال عنه، مصرح بأنه أسمر مصنوع من جلد الثور: (55)

وَأَسْمَرَ مُجْنَأً مِنْ جِلْدِ ثَوْرٍ أَصَمَّ مُفْلَأَ ظَبَّةِ النَّبَالِ

6. العدو السريع:

إن العدو من الأسلحة الذاتية التي اعتمد عليها الصعاليك في مغامراتهم، وقد اتصف بهذه الأسلحة الذاتية معظم الصعاليك كما مرّ في تراجمهم وأشعارهم، وقد تفننوا في تصوير عدوهم واعتزوا بأنهم لا تلحقهم ولا تسبقهم الخيل؛ لأن " ثقة في الاعتماد على هذه السرعة غير العادية في العدو فيطمئن إلى أن يغزو أو يترصد، فإن ثقته في ساقيه تجعل معه حصناً متنقلاً يلوذ به فيحميه في أرح اللحظات". (56)

يصور تأبط شرا قصة نجاته واصفاً سرعة عدوه ومطاردة أعدائه إياه فشبه عدوه بسرعة عدو النعام والظبية: (57)

نَجَّوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَةٍ إِذْ أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أُرَاقِ

لَيْلَةَ صَاحُوا وَأَغْرَوَا بِي سِرَاعُهُمْ بِالْعَايِ كَتَيْنِ لَدَى مَعْدَى ابْنِ بَرَّاقِ

كَأَنَّمَا حَاثُوا حُصّاً قَوَادِمُهُ أَوْ أُمَّ خِشْفٍ بِذِي شَثِّ وَطَبَّاقِ

وفي قصيدة أخرى يفخر بأنه يسبق الخيل الجياد بجريه: (58)

لَهَا الْوَيْلُ مَا وَجَدَتْ ثَابِتاً أَلْفَ الْيَدَيْنِ وَلَا زُمْلَا

وَلَا رَعِشَ السَّاقِ عِنْدَ الْجِرَاءِ إِذَا بَادَرَ الْحَمْلَةَ الْهَيْضَلَا

53 المرجع السابق، ص 231

54 ديوان الهذليين، القسم الثاني-ص 60

55 المرجع السابق، القسم الثالث، ص 116.

56 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 233.

57 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاکر، ص 381.

58 المرجع السابق، ص 163.

يَفَوْتُ الْجِيَادَ بِتَّقْرِيْبِهِ وَيَكْسُو حَوَادِهَا الْقَسَطَاطَا

ويعتز بأنه منتقل بين الصحراوات بسرعة لاتتاح إلا للرياح: (59)

يَظَلُّ بِمَوْمَاءٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَاشِئًا وَيَعْرُورِي ظَهْرَ الْمَهَالِكِ

وَيَسْبِقُ وَفَدَ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ يَبْتَئِجِي بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدَّةِ الْمُتَدَارِكِ

أما الشنفرى فيصف سرعة عدوه بأنه حين يعدو على الأرض الصلبة يتطاير منها الحجارة فيقدح منها الشرر: (60)
إِذَا الْأَمْعَزُ الصَّوَّانُ لَأَقَى مَنَاسِمِي تَطَايَرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُقَالٌ

وافتخر الشنفرى بسرعة عدوه، وسابق مع القطا وأسبقه في وصول إلى مورد الماء لما شرب وارتوى وصل القطا فلا يجد إلا بقية من شرابه: (61)

وَتَشْرَبُ أَسَارِي الْقَطَا الْكُذْرُ بَعْدَمَا سَرَتْ قَرِيبًا أَحْنَأُهَا تَتَصَلَّصَلُ

هَمَمْتُ وَهَمَمْتُ وَابْتَدَرْنَا وَأَسَدَلْتُ وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلٌ

فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهِيَ تَكْبُو لِعَفْرِه يُبَاشِرُهُ مِنْهَا دُفُونٌ وَحَوْصَلُ

النوع الثاني: أسلحة روحية:

إن الأسلحة السابقة ذكرها ليست كافية لأن تجعل الصعاليك ناجحا في التصعلك، لأنها شائعة بين أفراد العرب، وميسرة لكل الناس، فيستطيع كل شخص أن يملكها، لذا هذه الأسلحة لا تكفي بأن تكون الوسيلة الوحيدة إلى الصعلكة، لأن حياة الصعاليك مليئة بالقسوة، والجوع والعطش، ومطاردة الأعداء، فلا تجدي الأسلحة والسيف في مواجهة هذه الظروف إلا مقومات ذاتية في الشخص. والأسلحة الروحية تعني بها "المقومات الشخصية، والصفات الخاصة التي ينبغي أن يتصف بها شخص ما إذا أراد أن يكون صعلك" (62) و من أهم الأسلحة الروحية التي ينبغي أن تجلى بها الصعاليك في مواجهة مغامراتهم والظروف القاسية الجراءة والحذر، والصبر، والحيلة، والاستهانة بالموت.

1. قوة الإرادة والحزم:

عندما نلقي نظرة إلى شعر الصعاليك، فليس من المستبعد أن نجد فيه مقومات كثيرة يفتخرون بها، وكلها تدور حول قوة الإرادة والحزم، " بحيث يمثل لنا شعرهم الصعلوك ماضيا دائما في غير تردد ولا وجل، ويجعل من عزمه وإرادته ورأيه

59 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاعر، ص152.

60 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 58.

61 المرجع السابق، ص60.

62 المرجع السابق، ص258.

الهادي الوحيد له والدافع الوحيد لسلوكه"⁽⁶³⁾

وتأبط شرا يقول: إذا عزم على شيء حتى ولو لم يتحدث عنه فلا بد تنفيذه:⁽⁶⁴⁾

وَكُنْتُ إِذَا مَا هَمَمْتُ إِعْتَزَمْتُ وَأَحْرَ إِذَا قُلْتُ أَنْ أَفْعَلَا

فالصعاليك جميعا يحملون هذه الإرادة، ولكن الشنفرى كان أعلى درجتهم من حيث قوة الإرادة، ومن آثار ذلك أنه كثيرا ما كان يغير بمفرده، حين نقرأ لاميته نرى فيه بوضوح ما يملكه الشنفرى من قوة الإرادة وصلابة العزيمة.

عندما عزم على رحيل قومه فقال:⁽⁶⁵⁾

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صَدُورَ مَطِيَّكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمِ سَوَاكِمَ لِأُمَيْلٍ
فَقَد حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَالْأَيْلُ مُقْمِرٌ وَشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ

وفي وصف إحدى مغامراته فقال:⁽⁶⁶⁾

دَعَسْتُ عَلَى غَطَشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتِي فَأَيْمْتُ نِسْوَانًا وَأَيْتُمْتُ إِلْدَةً
سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَالْأَيْلُ الْيَلُ

2. الصبر:

الصبر مرتبط بالإرادة أيضا، وصاحبه يستطيع أن يسيطر على نفس في مواجهة كل الظروف، والصبر " هو الدليل الحقيقي على قوة الإرادة والتحكم في النفس"⁽⁶⁷⁾ حينما نقرأ أشعار الصعاليك وأخبارهم فلا يصعب علينا أن نجد أن حياتهم تكاد تعتمد على الصبر الشديد الذي لا يطيقه غيرهم، بلا مبالغة إن حياة الصعاليك بمثابة نموذج للصبر على حياة قاسية مفعمة بالمخاطر من كل جوانبها.

لقد جسم الشنفرى لنا هذا الصبر بصورة رائعة في لاميته، وهو يقاوم الجوع الشديد بالصبر، حيث يشاغل الجوع ويتجاهله ويماطله حتى يفنيه فيتناساه، وكأنه غير جائع:⁽⁶⁸⁾

أَيْمُ مِطَالِ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتُهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذُّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ

63 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 259.

64 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاكِر، ص 166.

65 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 55.

66 المرجع السابق، ص 63.

67 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 262.

68 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 58.

ويعتز الشنفرى بأنه ليس صبور فحسب وإنما هو مولى الصبر، لا يشنكي الجوع ولا يخاف الفقر، ولا يفرح بالغنى، ولا تثيره حماقات الجاهلين: (69)

فَأِنِّي لَمَوْلَى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَرَّهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمِ أَنْعَلُ
وَأَعْدِمُ أَحْيَانًا وَأَغْنَى وَإِنَّمَا
يَنَالُ الْغِنَى ذُو الْبُعْدَةِ الْمُتَبَدِّلُ
فَلَا جَزَعُ مِنْ خَلَةٍ مُتَكَشِّفُ
وَلَا تَزْدَهَى الْأَجْهَالُ جِلْمِي وَلَا أَرَى
سَوُؤًا بِأَعْقَابِ الْأَقْوِيلِ أَنْمِلُ

ويحدثنا عروة بن الورد عن صبره على غشيان الموالي: (70)

صَبُورًا عَلَى رُزْءِ الْمَوَالِي وَحَافِظًا
لِعِرْضِي حَتَّى يُؤَكَّلَ النَّبْتُ أَخْضَرًا

3. الجرأة:

الجرأة صفة إيجابية التي يتصف بها كل الصعاليك، فقسم عبد الحليم الجرة على نوعين، أحدها تحكم الإرادة وضبط النفس، وهذا النوع يسمى شجاعة، والأخرى يميل إلى النفس وانفعالات فهي من ضعف الإرادة" أما الجرأة فيمكن أن ينظر إليها من زاويتين، إحدهما بمعنى أن يكون صاحبها متحكما في إرادته، ضابطا لتوجيه هذه الجرأة، فتنعكس قوة إرادته على جرأته وتوجيهها بزيادة هذه القوة، والناحية الأخرى من الجرأة جرأة لا تميلها الإرادة، وإنما تميلها انفعالات عابرة، غير ثابتة ولا مستقرة كالغضب والمفاجأة، وهذا النوع الذي لا تميله الإرادة الثابتة لا يعتبر من قوة الإرادة، وإنما هو في أغلب حالاته نوع من ضعف الإرادة" (71) وهنا نعني بالجرأة شجاعة، فلا منازعة في أن جميع الصعاليك شجعان، فطبيعة حياتهم لا يصلح لها إلا الرجل الشجاع، فهم لا يهابون الموت كأنهم دائما البادئون بالصراع.

يقول الشنفرى أن جميع أصحابه من الصعاليك يتحلون بالخصال من الشجاعة، ولكنه أشجع منهم في مطاردة الفريسة: (72)

وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٌ غَيْرِ أَنْنِي
إِذَا عَرَضَتْ أَوْلَى الطَّرَائِدِ أُبْسَلُ

ويقول تأبط شرا أن حياته وقفت على طلب الثأر، ولا يحتاج لسواعد، وفي قتاله لا يهدف إلى وصفه بالشجاعة: (73)

قَلِيلٌ غِرَارِ النُّومِ أَكْبَرُ هَمِّهِ
دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُقْتَنَعًا
يُمَاصُّهُ كُلُّ يُشَجِّعُ قَوْمُهُ
وَمَا ضَرِبُهُ هَامَ الْعِدَى لِئُشَجَّعَا

69 المرجع السابق، ص 62.

70 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبكر محمد، ص 66.

71 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 262.

72 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 54.

73 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاكر، ص 113.

ويصف عورة بن الورد شجاعته بأنه سريع الاستجابة لداعي الوغي: (74)
إِذَا قِيلَ يَا ابْنَ الْوَرْدِ أَقِيمِ إِلَى الْوَعَى أَجَبْتُ فَلَقَانِي كَمِيٍّ مُقَارِعُ

4. الاستخفاف بالموت:

إن الصعاليك لا يحرصون على الحياة، ولا يرهبون من الموت، لو كان بهم نفور من الموت كسائر الناس لما يتسنى لهم أن يكونوا صعاليك. وكان قيس بن الحدادية فضل الموت على الأسر، حين حاصره الأعداء من زينة، فطلبوا منه أن يستأسر فأبى قائلا: نفسي عليّ أكرم من ذلك، وأشد من ذلك وقاتلهم حتى قُتِل وهو يرتجز ويقول: (75)
أنا إذا الموت ينوب غالية مختلط أسفله بعالية
قد يعلم الفتيان أني صالية إذا الحديد رفعت عواليه

إن حديث الاستهانة بالموت من أبرز الموضوع الذي يتطرق إليه شعر الصعاليك ولا يكاد شاعر منهم أن يخلو شعره من هذا الموضوع، فتقننوا في تصويره معبرين عن مواقفهم إثر الموت.

وبين تأبط شرا أن الموت خير من الأسر، حين حاصره بنو لحيان، فطلبوا منه أن يستأسر فأبى، وقدر في نفسه إن لم ينجحه العدو فلا يتردد في إثارة الموت: (76)

هُمَا خُطْنَا إِمَّا إِسَارًا وَمِنَّةً وَإِمَّا دَمًا وَالْقَتْلُ بِالْحُرِّ أَجْدَرُ
وَأُخْرَى أَصَادِي النَّفْسِ عَنْهَا وَإِنَّهَا لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ

والشنفري يبلغ إلى أقصى الاستخفاف بالموت، فيوصي أصحابه بالألا يدفنوه بل يتركوه للضباع: (77)
لَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرِ
إِذَا احْتَمَلُوا رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي وَغَوِيرِ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثُمَّ سَائِرِي

ويؤكد الشنفري أنه مستعد لاستقبال الموت ولا يهرب منه ولا يخافه؛ فليس هناك عمات وخلات تبكين عليه؛ لأنه يعيش في الصحراء بعيدا عن الناس: (78)

إِذَا مَا أَتَنِي مِيَّتِي لَمْ أَبَالِهَا وَلَمْ تُذِرْ خَالَاتِي الدُّمُوعَ وَعَمَّتِي
وَلَوْ لَمْ أَرَمْ فِي أَهْلِ بَيْتِي قَاعِدًا إِذْ جَاءَنِي بَيْنَ الْعَمُودَيْنِ حُمَّتِي

74 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبكر محمد، ص 81.

75 كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ج 14، ص 103.

76 شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، ص 62.

77 ديوان الشنفري، طلال حرب، ص 47.

78 المرجع السابق، ص 39.

أما عروة بن الورد فهو أسهب في تصوير الاستهانة بالموت، حين يجزر امرأته وتنهائه عن المغامرة، فيقول لها أنه لا يبالي بالموت، ويصارغ الحياة وصولاً إلى هدف: (79)

أرى أمَّ حَسَّانَ العَدَاةَ تَلومُنِي تُخَوِّفُنِي الأعداءَ وَالنَّفْسُ أخَوْفُ
لَعَلَّ الَّذِي خَوَّفَتِنَا مِنْ أَمَامِنَا يُصَادِفُهُ فِي أهْلِهِ الْمُتَخَلِّفُ

وينصح الصعلوك بأن يبذل أقصى جهده في مواجهة الظروف والفقر، فإن حقق أهدافه طابت نفسه، وإن مات في سبيل تحقيقها ما محمود: (80)

وَلَكِنَّ صُعلوكاً صَفِيحَةً وَجِهَهُ كَضَوءِ شِهَابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلاً عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ المَنِيحِ المُشْهَرِ
فَذَالِكَ إِنْ يَلِقَ المَنِيَّةَ يَلْقَاهَا حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأَجْدَرِ

فلا شك في أن هؤلاء الصعاليك يستخفون بالموت بكل معنى الكلمة، وشعرهم في هذا المعنى يطابق أخبارهم، كما جاء في أخبارهم أن معظمهم ماتوا تحت سيوف الأعداء، ومن ضمنهم الشنفرى، وتأبط شراً، والسليك بن السلعة، وقيس بن الحداية، وعمرو ذو الكلب، وصخر الغي، فحققوا ما يدعون في شعرهم من استهانتهم بالموت.

5. الحذر:

إن حياة الصعاليك بمثابة معركة بين الحياة والموت، والإغارة أو المخاطر تأتي إليهم في كل لحظة، لا فرق فيها بين ليل ونهار، "وكان من الصفات الأساسية في كل صعلوك أن يكون حذراً متيقظاً شديد الحيلة والإحساس بالمخاطر، وقد جعلت هذه اليقظة فيهم ما يشبه الغريزة في الإحساس بالخطر والتهيب له" (81) لذا كثر الحديث عن الحذر واليقظة في شعرهم، وأسهب الشعراء الصعاليك في تصوير هذه الصفة. ويقول تأبط شراً عند تصوير مدى يقظته أن بين عينيه وقلبه صلة في الإحساس

بالخطر، ما إن حس قلبه بالخطر حتى عيناه تنظران فتجدان سلاحاً مصوباً بنحوه، وإذا نام فمال قلبه حارساً: (82)

إِذَا خَاطَ عَيْنَيْهِ كَرَى النُّومِ لَمْ يَزَلْ لَهُ كَالِيءٍ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكَ
وَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيئَةً قَلْبِهِ إِلَى سَأَلَةٍ مِنْ حَدِّ أُلُقِ بَاتِكَ

ويصف بأنه يقظ النوم، فلما يصيبه النوم العميق، ويحدث بذلك المرأة التي أبت الزواج منه لأنه معرض دائماً من أول يلاقيه: (83)

⁷⁹ ديوان عروة بن الورد، أسماء أبو بكر محمد، ص 87.

⁸⁰ شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 272.

⁸¹ المرجع السابق، ص 274.

⁸² شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، ص 72.

⁸³ ديوان تأبط شراً وأخباره، علي ذي الفقار شاكر، ص 113.

فَلَمْ تَرَ مِنْ رَأْيٍ فَتِيلاً وَحَادِرَتْ تَأْيَمَهَا مِنْ لَابِسِ اللَّيْلِ أَرَوَعَا
قَلِيلُ غِرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّهِ دَمُ النَّارِ أَوْ يَلْقَى كَمِيّاً مُقَنَّعَا
عَلَى غِرَّةٍ أَوْ جَهْلَةٍ مِنْ مُكَانِسٍ أَطَالَ نِزَالَ الْمَوْتِ حَتَّى تَسْعَسَعَا

ويصف الشنفرى صورة يقظته الدائمة، بأنه يبيت في مرقبته مستيقظاً، ووضع ذراعيه أمامه واتكأ محدباً عليهما، ليتاح له أن يفحص الأماكن والطرق من حوله: (84)

فَبِتَّ عَلَى حَدِّ الذِّرَاعَيْنِ مُجْزِباً كَمَا يَتَطَوَّى الْأَرْقَمُ الْمُتَعَطِّفُ

ويبين الشنفرى سبب شدة يقظته بأنه جنى كثير الجنائيات، فهو متربصون من الأعداء الذين ناموا فعيونهم يقظى: (85)

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تِيَّاسِرْنَ لِحَمِّهِ عَقِيرْتُهُ لِأَيِّهَا حُمٌّ أَوْلُ
تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ، يَقْظَى عُيُونُهَا حِثَّائاً إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلَّغُلُ

ويصور ضخر الغي مدى حذره، حين ذهب إلى الماء ليملاً قربته محاذراً، بأنه اختار طريق غير الذي ذهب فيه؛ مخافة أن يمكن الأعداء عليه: (86)

فَلَمَّا جَزَمْتُ بِهِ قَرَبَتِي تَيَمَّمْتُ أُطْرُقَةً أَوْ خَلِيفَا

6- الحديث عن الرفاق:

علاوة الأسلحة والرفاق من موضوع ما أكثر في شعرهم " نجد في شعرهم ألفاظ الرجل، المنسر، السربة، المقنب، الفتيان، والأصحاب، والصحب، والقوم، وأمثال هذه الألفاظ التي تدل على الجماعة" (87) كما حدث الشنفرى في بانيته عن رفاقه الذين خرجوا معه في إغارة العوص، ويسيروا على الأقدام وصولاً إلى هدفهم، وأداء من رفاقه في الإغارة رائعة واعتز بهم قائلاً: (88)

حَرَجْنَا فَلَمْ نَعْهَدْ وَقَلَّتْ وَصَائِنَا تَمَانِيَةً مَا بَعْدَهَا مُتَعَتِّبُ
سَرَاحِينُ فُتَيَانٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ مَصَابِيحُ أَوْ لَوْنٌ مِنَ الْمَاءِ مُدْهَبُ
نَمْرُ بَرَهُوِ الْمَاءِ صَفْحَا وَقَدْ طَوْتُ شَمَائِلَنَا وَالزَّادُ ظَنْنٌ مُغَيَّبُ

⁸⁴ ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص50.

⁸⁵ المرجع السابق، ص62.

⁸⁶ ديوان الهذليين، ص76.

⁸⁷ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص205.

⁸⁸ ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص34.

ثلاثا على الأقدام حتى سَمَا بِنَا على العَوْصِ شَعْشَاعٍ مِّنَ الْقَوْمِ مَحْرَبُ

ويتحدث عروة بن الورد عن رفاقه، حين يقودهم إلى الغزوة قائلا: (89)

أَقِيمُوا بَنِي أُنْبَى صُدُورَ رِكَابِكُمْ فَكُلُّ مَنَايَا النَّفْسِ خَيْرٌ مِّنَ الْهَزْلِ
فَأَيْنَكُم لَنْ تَبْلِغُوا كُلَّ هِمَّتِي وَلَا أَرَبِي حَتَّى تَرَوْا مَنِبَتَ الْأَثْلِ

7- الحديث عن الوحوش:

نتيجة كثرة تنقل الصعاليك في الصحراء فكثرت الوصف في شعرهم عن حيوان الصحراء ووحوشها ولا يكاد شاعر يخلو شعره عن الوحوش وتصوير تألفهم مع الوحوش.

يقول الشنفرى حين أثر على قومه الوحوش المفترسة، ويجد فيهن كراما لا يذعن سرا ولا يخذلن جانبا، وتكيف النفس

معهن: (90)

ولي دونكم أهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسُ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيَّالُ
هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعُ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَلُ

وبعد ذلك يوضح هذه الألوقة والمشاركة، كأنه واحد منها: (91)

تَرُودُ الْأَرَاوِي الصُّحْمُ حَوْلِي كَأَنَّهَا عَدَارَى عَالِيَهُنَّ الْمُلَاءُ الْمُذَيَّلُ
وَيَرْكُذُنُ بِالْأَصَالِ حَوْلِي كَأَنَّي مِّنَ الْعُصْمِ أَدْقَى يَنْتَحَى الْكِيحَ أَعْقَلُ

ويتحدث تأبطا شرا عن إلف الوحوش له، أن الوحوش تعودت على رؤيته ليلا ونهارا، ولم تجد منه أذى ولم يجد منها

مخاطر، فتحول الألف بينهما إلى الود: (92)

يَبِيْتُ بِمَغْنَى الْوَحْشِ حَتَّى أَلْفَنَهُ وَيُصْبِحُ لَا يَحْمِي لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا
رَأَيْنَ قَتَى لَا صَيْدٌ وَحْشٍ يُهْمُهُ فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْسَاءً لَصَافَحْنَهُ مَعَا

علاوة عن تصوير إلفهم مع الوحوش، فهناك أيضا تصوير رائع دقيق عن حياة الوحوش، فرسم لنا صخر الغي لوحة فنية في أدق صورها عن حمار وحش، يبدأ بصورتها في روضة من أعشاب الصحراء، فيشبعان من الأعشاب، ثم تحركا إلى مورد الماء، لما قربا إلى الماء أحسا صائدا بيصدهما، فدارا والتقا حتى بعدا عن الماء، وصعدا مرفتع الأرض وانحدرا فيظلان طول الليل في بحث الماء، لما جاء الضحى ظنا أزمتهما زالت، ولكن في الحقيقة حلت أزمة جدية إليهما،

89 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبكر محمد، ص 89.

90 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 55.

91 المرجع السابق، ص 65.

92 ديوان تأبط شرا وأخباره، علي ذي الفقار شاکر، ص 115.

إذ فوجئنا بخيل الصائدين تشيم الرياح في صدوهما: (93)
وَلَا عِلْجَانِ يَنْتَابَانِ رَوْضَا
نَضِيرَا نَبْتُهُ عُمًّا تُوَامَا
كَلَا الْعِلْحَيْنِ أَصْعَرُ صَبْعَرِيٍّ
تَخَالُ نَسِيلَ مَثْنَيْهِ التَّغَامَا

8- وصف الهموم:

إن الهموم موضوع انفرد بها شعر الصعاليك، حين نقرأ شعر الصعاليك نحس أن الهموم كانت جانباً من الجوانب القاسية في حياة التصلعك التي يعانوها ويصارعونها، وهي ليست مجرد انعكاس تجربتهم الحقيقية في كل ما يعانونه فقط بل أيضاً تجربة نفسية تجيش في صدورهم، ليكون شعراً مطابقاً كل المطابقة لصورته في نفوسهم.

يصف لنا الشنفرى همومه، وثقلها على نفسه، بأن هجومها أقوى من إغارة أعدائه، وهي مثل الحمى تأخذه دوماً، عندما غلب عليها فترجع إليه مرة ثانية: (94)

وَأَلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيَادًا كَحُمَى الرَّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ
إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا نَمَّ إِنَّهَا
تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تُحَيْتٍ وَمِنْ عَلِّ

ما أكثر دقة هذا الوصف عن الهموم، وما أبلغ التعبير في الألفاظ الموحية، من أمثلتها (ألف) يوحي إلى تعوده على الهموم، و(ما تزال) يوحي إلى توارده الهموم عليه باستمرار، و(إذا وردت أصدرتها) يوحي بصراعه العنيف مع الهموم، و(ومن تحيت ومن عل) يوحي بأن الهموم كالحبال لفته من كل نواحي، فالصورة كلها تمتاز بإيحاء خاص، وهذا يدل على " أن الشنفرى لم يكن متخيلاً ولا متكلفاً في صورته هذه عن الهموم، وإنما كان معبراً عن واقع يحسه ويعاني منه" (95)

ويوضح قيس بن الحدادية عن الهموم التي تعانیه مترددة، وينتج عن ذلك أن يلجأ إلى صراع عنيف مع الأعداء: (96)
وَبُدِّلَتْ مِنْ جَدْوَالِكِ يَا أُمَّ مَالِكِ
طَوَارِقَ هَمٍّ يَحْتَضِرُنْ وَسَادِيَا
وَأَصْبَحَتْ بَعْدَ الْأَنْسِ لَابَسَ جُنَّةٍ
أَسَاقِي الْكَمَاءِ الدَّارِعِينَ الْعَوَالِيَا

9- إباء هوان الكيافة:

كان الصعاليك يعيشون في الطبقة الدنيا من المجتمع، من أجل حصول على مكانتهم الصحيح في المجتمع، وإثبات كيانهم، يصارعون مع القبائل؛ بأن الحياة الاجتماعية كانت تحكم فيها القبيلة، وهي توجه حياة الأفراد والجماعة، وكل أفراد يذوبون في القبيلة ويعلنون ولاءهم لها، فتنتفي بذلك الرؤية الذاتية والنزعات الفردية أمام قرار القبيلة،

93 ديوان الهذليين، ص 64.

94 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 62.

95 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص 293.

96 كتاب الأغاني، ج 14- ص 101.

ونفوسهم لا تقبل العيش بدون عزة وكرامة، ولم يكن أمامهم لمقاومة هذا الهوان إلا اللجوء إلى قوتهم وأسلحتهم أيا كان مظهر القوة وأيا كان أسلوب العنف.

هذا الإباء يتمثل في شعرهم، فعبر عن إحساسهم بالذل والهوان الذي يفرض عليهم المجتمع، والشنفرى قد عبر عن نفوره من إذلال نفسه باستجداء حسنات الناس مفضلاً استئاف التراب على ذلك: (97)

وَأَسْتَفُّ ثُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يَرَى لَهُ عَلِيٌّ مِنَ الطَّوْلِ إِمْرُؤٌ مُتَطَوُّوْ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الدَّامِ لَمْ يُلَفَّ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيْ وَمَا كَلْ
وَلَكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُ بِي عَلَى الدَّامِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوُّوْ

فوصف الشاعر صورة مؤلمة في الجوع من ناحية ومن ناحية أخرى يعبر عن عزمه صارم من الخلع عن قبيلته، ويفضل ملأ البطن الفاضي بالتراب على أن يمد اليد إلى الأغنياء.

وقارن عروة بن الورد بين صورتين متقابلتين، إحداهما تسخر سخريّة موجهة من الصعلوك المسكين للهوان الذي يرضى لنفسه أن يكون كل أمله أكلة يجود عليه بها أحد الموسرين وأن يكون كل ما في حياته حلقة مفرغة من النوم والكسل وخدمة المحسنين إليه، والصورة الأخرى عن الصعلوك المستيقظ حماساً وحيوية وحركة، حتى كأن الحيوية جذورة نار تكسو وجهه، هو في صراع دائم مع العيش والحياة والأعداء، ويبلغ من خطره أن أعدائه مهما يحاولوا البعد عنه أتقاء لشره، فإنهم يتوقعون دائماً مفاجأته إياهم كما يتوقع الأهل حضور غائب منتظر الأياب فيقول: (98)

لَحَى اللَّهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي الْمَشَاشِ أَلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا يَحْتُ الْحَصَى عَنِ جَنْبِهِ الْمُتَعَفَّرِ
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنُهُ وَيُمْسِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ
وَلَكِنَّ صُعْلُوكًا صَفِيحَةً وَجْهِهِ كَخَوْءِ شِهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوَّرِ
مُطَلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهَرِ
إِذَا بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ إِقْتِرَابَهُ تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظَّرِ
فَذَالِكَ إِنْ يَلِقَ الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوْمًا فَأَجْدَرِ

97 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص58.

98 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبك محمد، ص68.

والسليق بن السلعة قارن أيضا بين كيانهم في المجتمع وكيانهم الجديد الذي يسعون إليه: (99)
فَلَا تَصِلِي بِصُعْلُوكِ نَوَّومٍ إِذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ الْعِيَالِ
وَلَكِنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرْوبٍ بِتَصَلِّ السَّيْفِ هَامَاتِ الرِّجَالِ

عندما نستعرض لشعر الصعاليك فيتراى لنا أن ينبئ شعراهم عن صراهم العنيف مع الهوان، ويبدلون كل شيء في سبيل إثبات كيانهم في المجتمع حتى تضحية نفوسهم، فهم ينعون نعيًا شديدا على الخاملين منهم، حاضين إياهم أشد الحز على أن يتحركوا ويخطروا بأنفسهم في أي شيء يقول عروة بن الورد: (100)

خَاطِرِ بِنَفْسِكَ كِي تُصِيبَ غَنِيمَةً إِنَّ الْجُلُوسَ مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحٌ
الْمَالُ فِيهِ تَجَلَّةٌ وَمَهَابَةٌ وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَقُبُوحٌ

والشنفرى يؤكد أنه كل ما يجعله ضعيفا أو خاملا أو كسولا أو مهينا أو مغلوبا على أمره أو أي شيء مما يريد المجتمع للصعاليك: (101)

وَأَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشِّي سَوَامَةً مُجَدَّعَةً سُقْبَانَهَا وَهِيَ بُهَّلٌ
وَلَا جَبَأُ أَكْهَى مُرَبِّ بَعْرَسِهِ يُطَالِعُهَا فِي شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ
وَلَا خَرِقِ هَيْقٍ كَأَنَّ فُؤَادَهُ يَظَلُّ بِهِ الْمُكَّاءُ يَعْلُو وَيَسْفِلُ
وَلَا خَالِفِ دَارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ يَرُوحُ وَيَغْدُو دَاهِنًا يَتَّكَحَلُ
وَأَسْتُ بَعْلٌ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ أَلْفٌ إِذَا مَا رُعْتَهُ إِهْتَاخٌ أَعَزَلُ
وَأَسْتُ بِمِحْيَارِ الظَّلَامِ إِذَا انْتَحَتِ هُدَى الْهَوَجِلِ الْعَسِيفِ يَهْمَاءُ هَوَجَلُ

وعروة بن الورد عبر على عزمه في صراع هوان المجتمع ويفضل الموت على تلك الحياة الخاملة المهينة: (102)
وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا
فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالنَّمِيسِ الْغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعَدَّرَا

من خلال الألفاظ والمعاني المتكررة في شعراهم ليس من الصعب أن نجد أن اتجاههم إلى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول إلى الغنى، وإنما كان مع ذلك يحمل الرغبة في إثبات كيان لهم في المجتمع.

99 السليق بن السلعة أخباره وشعره، حميد آدم ثويني، كامل سعيد عواد، ص 62.

100 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبكر محمد، ص 53.

101 ديوان الشنفرى، طلال حرب، ص 57.

102 ديوان عروة بن الورد، أسماء أبوبكر محمد، ص 77.

خصائص شعر الصعاليك:

إن شعر الصعاليك بخروجه عن النمط المألوف للقصائد الجاهلية فينفرد بميزات يخلو الشعر الجاهلي منها، " شكأت حركة الصعاليك الشعرية أول حركة تمرد في تاريخ الشعر العربي؛ إذ شق هؤلاء الصعاليك عصا الطاعة وخرجوا على الإجماع الشعر الجاهلي" (103) فيمكن تلخيص سماته الفنية إلى الآتي:

1- شعر المقطوعات:

عندما نلقت النظر إلى شعر الصعاليك فيتراث لنا ذبوع المقطوعات من ذبوع القصيدة، وذلك لا يعني انعدام القصيدة فيه، إذا استثنينا القصائد التسع الطوال، من ضمنها تائية الشنفرى بأربعة وثلاثين بيتاً، ولاميته المشهورة بثمانية وستين بيتاً، ولاميّة عمرو ذي الكلب بثلاثين بيتاً، ورائية عروة بن الورد، وفائية صخر الغي كل منهما في سبعة وعشرين بيتاً، وقافية تأبط شرا بستة وعشرين بيتاً، ورائيته في رثاء الشنفرى ذات سبعة وعشرين بيتاً، وبائية الأعم بأربعة عشر بيتاً، ودالية صخر الغي بثلاثة وعشرين بيتاً، فإننا نجد في مصادر شعر الصعاليك أو دواوينهم مجموعة كبيرة من مقطوعات تتراوح أبياتها بين بيتين أو فوقها، ماعدا مجموعة من القصائد القصيرة. وهذه الظاهرة البارزة تسوقنا إلى التساؤل، ما السبب فيها؟

لعل مرجع كثرة المقطوعات يرجع إلى طبيعة حياتهم القلقة المشغولة بالكفاح، لا يكاد لديهم وقت كاف لتفرغ فن الشعر كما كان يفرغ زهير لحوليته، يقول الدكتور يوسف خليف: "نفترض أن مجموعة الصعاليك التي بين أيدينا ناقصة لا من حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب، ولكن من حيث أبياتها أيضاً، وهو افتراض له اغراؤه لأنه مريح من ناحية، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربي من ضياع أكثر الشعر الجاهلي من ناحية ثانية، ولأنه- من ناحية ثالثة- مقبول في مثل حالة الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص على شعرهم وحتى لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم، وإما أن نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهي أن مجموعة شعر الصعاليك- في مجموعها- مقطوعات قصيرة، ثم نلتمس العلة في ذلك والعلة عندي هي طبيعة حياتهم نفسها، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لاتكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده" (104)

2- عدم التكلف:

لم يكن الشاعر الصعلوك يفرغ نفسه لكي يتأنق في شعره ليأتي به على أحسن حال.. بل إن واقع حياته هو الذي لم يسمح له بهذا، فالصعلوك دائماً متنقل، هارب، وأنّى له الاستراحة والهدوء لإعمال فكره في الشعر. فإذا أراد السليك بن السلكة أن يوصل خبراً لرفيقيّن له قال هذا الخبر وهو يركض ويعود بسرعة فكيف سيأتي هذا الشعر منمق الألفاظ؟
يقول: (105)

103 قراءات الشعر العربي الحديث، حلمي سالم، الوتر والعازفون، ص 12.

104 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص 261.

105 كتاب الأغاني، ج 20، ص 377.

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد رام بين أنواد
أنظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي

3-الدقة في التعبير:

وهذه الدقة تتجلى في أبيات عديدة، وهي مظهر من مظاهر الصراحة الواقعية فنحن نرى هذه الدقة في الأرقام وتحديد الأماكن بدقة وتحديد اللفظ المعبر بدقة.

يقول تأبط شراً: (106)

تقول تركت صاحباً لك ضائعاً وجئت إلينا فارقاً متباطئاً
إذا ما تركت صاحباً لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبت أمنأ

ومثال الدقة في تحديد الموقع الجغرافي في قول الأعم الهذلي: (107)

فلست لحاصن إن لم تروني ببطن ضريحه ذات النجال
وأمي قينة إن لم تروني بعورث وسط عرعرها الطوال

وإلى جانب هذه الدقة في تحديد الموقع الجغرافي نجد الدقة في اللفظ الذي يحدد التعبير الدقيق والذي يحدد بدوره مدلول

العبارة.. فتأبط شراً يحدد لنا خروج الحية بدقة بعد غروب الشمس وكأنه يعرف الدقيقة التي تخرج بها يقول: (108)

أصم قَطَارِيٌّ يَكُونُ خُرُوجُهُ بُعِيدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ مُخْتَلِفُ الرَّمَسِ

لقد وصل في الدقة درجة عالية، ويمكن أن نصادف عدداً من هذه الأبيات ولكن هل جاءت وليدة إعمال فكر؟ أظن أنها لم تأت نتيجة الإجهاد والإعمال، ولو كانت كذلك لرأينا العدد الأكبر منها، فهي لا شك جاءت عفوية وذلك قياس مع طريقة حياتهم على عكس الشعراء الجاهليين الذين كانوا يقضون سنة كاملة في نظم القصائد التي سُميت بالحواليات.

4- التلخيص من المقدمات الطليئة:

إن أبرز ميزات شعر الصعاليك ابتعاده عن استهلال بمقدمات غزلية، "فشعر الصعاليك مثلاً يندر أن نجد فيه بدء القصائد بالغزل كطابع تقليدي" (109) وهذا لا يرجع إلى جمود في المشاعر وافتقار إلى المخزون العاطفي عند الصعاليك، بل يرجع إلى ظروف حياتهم وانتبازهم عن المجتمع وإيثارهم للعزلة، فحياتهم إما أن تكون بحثاً وراء لقمة العيش أو تنفيذاً لغارة خطوها. لذا قلماً نعثر في شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية والوقوف على الأطلال،

106 ديوان تأبط شراً وأخباره، علي ذي الفقار شاکر، ص213.

107 ديوان الهذليين، ج3-ص119. ضريحة وعورث من أسماء المواضع.

108 ديوان تأبط شراً وأخباره، علي ذي الفقار شاکر، ص104.

109 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم، ص392.

وذكرى الحبيب على نحو ما كان الشعراء الجاهليون عليه، باستثناء تائيه الشنفرى التي تغزل في مستهلها غزلاً رقيقاً بمحبوبته في الخيال من يسميها (أم عمرو)؛ والعلة ليست لأنهم لم تكن لهم محبوبات يتعلقون بهن بل لأنهم عبروا في أشعارهم عن عدم اهتمام بعلاقاتهم بالمرأة يقول تأبط شرا: (110)

وَلَا أَقُولُ إِذَا مَا خُلَّةٌ صَرَمَتْ يَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ شَوْقٍ وَإِشْفَاقٍ

5- الوحدة الموضوعية:

عندما نستعرض للشعر العربي القديم نجده يلتزم الطابع التقليدي المتوارث عن الشعراء القدامى، سواء من حيث المطلع أو المعاني أو الألفاظ أو النواحي البيانية والبلاغة، كثيراً ما يفتح الشاعر قصيدته بالمقدمة الطللية، ثم يبدأ وصف حاله أو ناقته، ثم يدخل الموضوع الأساسي، فهذا الطابع معروف في الشعر العربي القديم، حيث يطلقه النقاد القدامى على عمود الشعر. أما شعر الصعاليك فيخالف هذا الطابع مخالفة واضحة، " بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها، دالاً على موضوعها. وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعته، تلك القصائد التي تبدأ عادة بمقدمة طللية، ثم تظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء" (111) فمجموعة شعر الصعاليك لا تكاد تخلوها الوحدة الموضوعية في قصائدها أو مقطوعاتها، فالقصيدة وإن تعددت أغراضها إلا أنها ترجع إلى أصل موضوعي واحد تتفرغ منه، كما تتفرغ أغصان الشجرة من جذعها، فلامية الشنفرى على كثرة من تناوله فيها من أغراض فرعية من حديث عزمه على رحيل القوم، من حديث صفات ذميمة يبرأ منها وصفات حميدة يتميز بها، من وصف الذنب والقطا، ومن وصف النوم والهوموم، وحديث الإغارة في ليلة قاسية البرد، في الحقيقة ترجع أغراض فرعية إلى موضوع واحد هو الصراع الذي يعانیه الصعاليك في مواجهة الأعداء ومقاومة الظروف القاسية من أجل إثبات كيانهم، حتى ليصح أن نسميها (الصعاليك في صراع المهنية).

ولامية ذي الكلب أيضاً على تعدد الأغراض، تنال فيها عدة أغراض فرعية، يبدأ من حديث إلى صاحبه عن غزواته، ثم يبين تربص الأعداء به وتربصه بهم، ثم يتعرف على رفاقه وأسلحته، في الحقيقة، يستطيع أن يرجع إلى موضوع واحد ألا وهو الصراع بينه وبين أعدائه، ويصح أن نسميها (صراع الصعاليك).

أما رائية عروة بن الورد فهي أيضاً على كثرة ما تناوله فيها من أغراض فرعية، ابتداءً بحديث تصعلك ودوافعه، ثم يوضح الصعلوك الخامل والصعلوك العامل، ثم يتحدث عن خصلته متمثلة في كرمه وفقره، فترجع في حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو فكرة التصعلك، يمكن أن نعيناها بفلسفة الصعلكة. وهذا هو أبرز سمات لشعر الصعاليك لالتزام القصيدة أو المقطوعة فيه بالوحدة الموضوعية، وعدم تعدد العناصر التي تلازم الشعر العربي القديم" وبهذا يكون شعر الصعاليك محققاً لوحدة القصيدة على أكمل وجه فني، سواء من وجهة نظر نقاد العرب القدامى، أو من تابع نظرتهم من النقاد المحدثين،

110 المفضليات، ص28.

111 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص264.

أمّا من وجهة نظر النقد الغربي، ممثلة في آراء المستشرقين، ومن تابع نظرتهم من نقادنا المحدثين، وسواء نظرنا إلى الوحدة، على أنها وحدة نفسية أو وحدة فنية، أو وحدة عضوية، فمن كل هذه الزوايا نجد شعر الصعاليك يحقق الوحدة في قصائده ومقطوعاته في أكمل صورها⁽¹¹²⁾

6- الواقعية:

يعرف نقاد الأدب الواقعية على أنها عدم خروج الأديب بأدبه عن دائرة الواقع المألوف الذي يألفه الناس، ويتفق مع المألوف الذي يألفه الناس، ويتفق مع معلوماتهم عن طبيعة الموضوع وتقابل الواقعية عندهم⁽¹¹³⁾ وإذا استعرضنا لشعر الصعاليك، فنجد أن كله لا يعدو تصوير الواقع الذي يعيشون فيه، وتصوير إحساسهم بهذا الواقع، وابتعد عن الإمعان في الخيال إمعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الخيال بسحبه العالية وأبراجه العاجية. لو رجعنا إلى كل الموضوعات والأغراض التي طرقها شعرهم فتتراء لنا مظاهر الواقعية واضحة جلياً، فقد صور الشعراء الصعاليك في قريحتهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها، الصحراء القاسية وجبالها، ومياهها، وحرها وبردها ولياليها المظلمة، وحيواناتها الشاردة، كما صوروا الحياة القاسية المؤلمة في الصلابة بكل ما فيها من الفقر والجوع والهزال والهوان، وكل هذه الجوانب من الحياة الواقعية، وكل التصوير ينقل عن الحياة فتطابق الصور للأصل بحيث لا يحس القارئ أو الدارس في شعر الصعاليك بالاختلاف بين الصور الشعرية والحياة الواقعية، كأن شعرهم مجموعة من الصور الفتوغرافية أو الرسوم المتحركة تعرض أمامه، أو المذكرات الشخصية⁽¹¹⁴⁾ أن شعرهم يعتبر كالمذكرات الشخصية، التي دون كل منهم فيها خواطره الواقعية، في نطاق حياته ومعيشته، وصلابته وصراعه مع ما حوله ومن حوله⁽¹¹⁴⁾.

يصف السيلك بن السلعة حرمانه في أشد الأيام ويبلغ به الجوع حد الهزال والضعف حتى إذا وقف اعتراه دواراً فأظلمت عيناه⁽¹¹⁵⁾

وَحَتَّى رَأَيْتُ الْجُوعَ بِالصَّيْفِ ضَرَّنِي إِذَا قُمْتُ تَغْشَانِي ظِلَالٌ فَأَسْدِفُ

ويصور الأعمى الهذلي نجائه من الأعداء في واقعية صريحة، كان يخيل إليه أن الأعداء قد أخذوا عليه كل سبيل، حتى أن الشجر الذي يمر به فيحسبه أعداء يسألون سيوفهم عليه⁽¹¹⁶⁾

وَأَحْسِبُ عُرْفَ الزَّوْرَاءِ يُوْدِي عَالِيَّ بِوَشْكَ رَجْعٍ وَإِسْتِلَالٍ

112 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 401.

113 المرجع السابق، ص 378.

114 شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحلیم، ص 379.

115 السيلك بن السلعة أخباره وشعره، حميد أدم ثويني، كامل سعيد عواد، ص 60.

116 عمر بن براقه الهمداني، شريف راغب علاونة، القسم الثاني، ص 85.

هكذا نستنتج مما مرّ بنا أنّ كل شعر الصعاليك كاد أحاط بالواقع من حيث الموضوع أو الأغراض، أو الصور فلا يخلق خيالية وإنما ينقل حياتهم ومعيشتهم وأحداثهم بكل الصدق والتعبير، فلامية الشنفرى أحسن دلالة، يمكن أن نرى صور حياة الصعلكة في مدّها وجزرها وسعادتها وشقائها وتفاؤلها وتشاؤمها، وحلوها ومرّها.

الخاتمة:

سلطت هذه الدراسة الضوء على دراسة الأغراض والخصائص في شعر الصعاليك دراسةً أدبيةً نقديةً تحليليةً، حيث ظهر في المقدمة الحديث عن أهمية شعر الصعاليك ومنزلتها بصورة مختصرة، وجاء بالتمهيد التعريف على مفهوم الصعلكة وطوائف الصعاليك، ثم جاء الحديث عن أغراض شعر الصعاليك واستعراض الأغراض الشائعة في شعر الصعاليك ورصد العوامل البيئية والنفسية في صياغتها، وبعد ذلك تم تسليط الضوء على الخصائص الفنية التي تميز بها شعر الصعاليك عن الشعراء الأوائل بغية الوصول إلى الهدف المرجو.

أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

- الصعلكة بمفهومها الأعم هي ظاهرة اجتماعية بدأت في العصر الجاهلي ودفع إليها عدة أسباب، كالتفاوت بين الفقراء والأغنياء، وطبيعة الحياة، فالحظ والجذب كانت تفرض عليهم الغزو لكسب الأرزاق والعيش، كما أن عدم وجود دولة جامعة لها أسسها ومرجعيتها الموحدة جعل الناس تحيا بتلك الطريقة؛ لأن هؤلاء الصعاليك يعيشون في الحرمان من الحصول على نصيب ما ينبغي عليهم، ويعانون بالهوان والضعف فلجأوا إلى أخذ سلاحهم ليدافعون عن أنفسهم بالغزو والسطو، ويأخذون نصيبهم في الحياة بوسائلهم.
- حين نتأمل شعر الصعاليك في جملته نجد أنهم لا يقصدون قصدا واضحا إلى الحديث في غرض معين، ولا غرضا مقصودا لذاتهم، بل يميلون إلى شخصية الصعاليك وحياتهم، فهم يتحدثون عن الفقر، والسلاح، والوحوش؛ لكننا نحس أنه لا يتحدث عن شيء من ذلك لذاته، وإنما يتحدث عن مثل هذه الأشياء من زاويته هو، ومن حيث ارتباطه بها في مزولة الصعلكة وتأثره بها.
- إن شعر الصعاليك يتسم بسمات من دقة التعبير والتخلص من المقدمة؛ فهو لم يحتوي على مقدمات ظلّية، ولا وصفاً لمعركة وراحلة أو صحراء، وإنما كان معظم شعر الصعاليك يمتلئ بوصف قيمهم الأخلاقية، والأسباب التي جعلتهم يسلكون مسلكهم في الغزو والنهب، من أجل إطعام الفقراء في معظمهم أو لمآرب شخصية، واتسمت قصائدهم بإطلاق العنان لخيالهم، بالإضافة إلى إبراز حكمتهم في أبياتهم الشعرية، كما أنّهم أقلّوا من الشعر الغزلي بحكم حياتهم القائمة على عدم الاستقرار.
- كان للشعراء الصعاليك مذهبهم في الحياة القائم على الإغارة والسلب من الأغنياء، إما لتحقيق غايات شخصية والانتقام لما تعرّضوا له من ظلم اجتماعي حال الشنفرى وصحبه، وإما لغايات نبيلة تتمثل بمساعدة الفقراء، وعلى اختلاف الغايات كان لشعرهم طابعه المختلف عن شعر البادية بصورة عامة، فشكّلوا جانباً أدبياً جديداً لا يمكن إنكاره والتقليل من أهميته في الأدب العربي.

التوصيات:

- أوصى بإجراء دراسة أدبية حول الشعراء الصعاليك وإبراز الجوانب الفنية في قصائدهم.
- يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة شعر الصعاليك لما فيه من القيم الجمالية.
- أوصى بالتعرف على جوانب أخرى في شعر الصعاليك حيث لم يتم حتى الآن، ورصد ملامحها الفنية مقارنة بالعناصر الفنية.
- أوصى بتصميم وإعداد محتوى النصوص الأدبية من شعر الصعاليك على أسس علمية سليمة والاستفادة من النظريات والمداخل التربوية في التدريس.

المصادر والمراجع

- مدرك، أبو صالح يحيى بن. (1994م). ديوان حاتم الطائي، الطبعة الأولى. دار الكتاب العربي بيروت.
- محمد أسماء أبوبكر. (1998م). ديوان عروة بن الورد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر. (1966م). كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- الحليم عبد. (1987م). شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حرب طلال. (1996م). ديوان الشنفرى، الطبعة الأولى. دار صادر بيروت.
- شاکر علي ذي الفقار. (1984م). ديوان تأبط شرا وأخباره، دار الغرب الإسلامي.
- ديوان الهذليين. (1965م). نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.
- علاونة شريف راغب، عمر بن براقه الهمداني. (2005م). الطبعة الأولى، دائرة المكتبات والوثائق الوطنية.
- أدم ثويني حميد، عواد كامل سعيد. (1984م). السليك بن السلكة أخباره وشعره، الطبعة الأولى، مطبعة العاني بغداد.
- الأصفهاني أبو الفرج. (2008م). كتاب الأغاني، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثالثة، دار صادر بيروت.
- خليفة يوسف. (د.ت). الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مكتبة الدراسات العربية، دار المعارف.
- الضبي المفضل المفضليات. (1964م). تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة السادسة، دار المعارف بالقاهرة.
- المرزوقي أحمد بن محمد بن الحسن. (2003م). شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- سالم حلمي. (1992م). العازفون الوتر، قراءات الشعر العربي الحديث، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v3.34.12